

معزز الخطيب يحاضر حول علاقة الفقه بالأخلاق

ضمن سلسلة محاضرات "أكاديمية الاختصاص" التي يعدها معهد التفكير الإسلامي، ويقدم فيها عدد من الأكاديميين محاضرات أكاديمية حول الأصول والمنهجية في الفكر الإسلامي، قدم الدكتور معزز الخطيب، يوم الخميس 11 شباط/فبراير 2021، محاضرة بعنوان "الأصول والمنهجية في الفكر الإسلامي: علاقة الفقه بالأخلاق".

استهل المحاضر كلامه بالإشارة إلى أن علم الأخلاق اليوم هو محل إشكال لعدة أسباب؛ أولها يرجع إلى مصطلحاته المستخدمة اليوم، وتحديداً مفاهيم الأخلاق بالإنجليزية، ومشكلة إيجاد مقابل عربي دقيق لها. أما السبب الثاني فهو متعلق بحدود هذا العلم وشمولاته، والسبب الثالث يرجع إلى تحديد وجه صلته بالعلوم الأخرى، وما إن كان هذا العلم جزءاً من الفلسفة أو جزءاً من العلوم الاجتماعية أو جزءاً من الدراسات الإسلامية. أين نضعه في خريطة العلوم الإسلامية اليوم؟ فعلم الأخلاق اليوم محل الإشكال لهذه الأسباب مجتمعة.

إذاً فإن أول خطوة لفهم العلاقة بين الفقه والأخلاق تكمن عن طريق تحرير مفهوم الأخلاق وذلك، بحسب الخطيب، يكون على مستويين: المستوى الأول هو مفهوم الأخلاق في الكتابات الكلاسيكية، والمستوى الثاني هو مفهوم الأخلاق ضمن الكتابات الحديثة اليوم.

كان محور الأخلاق سواء لدى اليونان أو لدى فلاسفة المسلمين في الأزمنة الكلاسيكية هو الفضائل والردائل؛ لأن الفضائل والردائل تبحث في صفات النفس السينة والجيدة. بينما انتقلت الأخلاق في المنظور الحديث من الحديث عن صفات النفس إلى التركيز على الأفعال وتقويمها، فلم يعد في العصر الحديث مركز اهتمام الأخلاق هو الإنسان نفسه وإنما أفعاله. وبذلك انتقلنا من الحديث عن أخلاق الفضيلة إلى الحديث عن الأخلاق المعيارية التي تتناول الأفعال خاصة.

وقد أشار الباحث إلى أن هناك أربعة مستويات للأخلاق؛ المستوى الأول: هو الأخلاق المعيارية، وهي التي تحدّد المعايير التي تحكم الأفعال. المستوى الثاني: هو الأخلاق التطبيقية، وهي المعايير والتقويمات التي تحكم مجالات العمل، والمهن، ومجالات البيئة ومجالات البيولوجيا. المستوى الثالث: هو ما بعد الأخلاق، هو الفرع الذي يبحث في الإجابة على الأسئلة الكبرى؛ أي: ما المصادر التي تحدد لنا معرفة ما هو صحيح وما هو خطأ؟ كيف نعرف أن هذا الأمر صحيح أو خطأ؟ ما معنى صح أو خطأ؟ والمستوى الرابع هو الأخلاق الوصفية، وهي خارجة عن حقل الفلسفة أصلاً، فهي جزء من علم الاجتماع؛ لأنها تبحث في القيم التي يعتقدونها ويتبنّاها مجتمع معين في مرحلة معينة.

وانتقل المحاضر إلى سؤال "لماذا لم ينشأ علم مستقل للأخلاق في الحضارة الإسلامية؟" وقد أوضح أن الأخلاق كانت فرعاً مستقلاً داخل فروع الفلسفة في التصورات اليونانية، والتصورات اليونانية تقسم الحكمة إلى نوعين حكمة عملية وحكمة نظرية، الحكمة النظرية هي ما نسميه الفلسفة اليوم، والحكمة العملية تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ السياسة، الاقتصاد والأخلاق، والفلاسفة المسلمون كالغزالي وابن سينا والفارابي أخذوا هذا التصور اليوناني وجعلوها فرعاً من فروع الحكمة العملية، إذ بنوا على الإرث الفلسفي اليوناني.

ولكن الأخلاق بمعنى الأحكام المعيارية لم تكن مطروحة حينها؛ لأنهم تناولوا هذه المسائل في علوم أخرى كالفقه وأصوله، ولهذا لم يجدوا حاجة إلى البحث في الأفعال؛ لأن الأخلاق عندهم كانت صفات فيحتملوا في الفضائل والردائل. كما نجد عند الأئمة الكبار كالأصفهاني والغزالي- وأصقوها بعلم التصوف آنذاك، ولذلك نجد عناوين في التراث الإسلامي مثل تهذيب الأخلاق أو ماشابهها.

كما ناقش الدكتور الخطيب العلاقة بين الفقه والأخلاق بداية بتعريفه الخاص للأخلاق على أنها: "ماذا يجب علي أن أفعل؟ وكيف أحيأ؟ وما المصادر التي تساعدني على الإجابة على السؤالين؟" وهذا يجعل من الأخلاق حقلاً متعدد التخصصات، وبالتالي ستتقاطع مع علم الكلام والتصوف ومع الفقه ومع أصول الفقه، والأخلاق في تصور المحاضر هي أوسع من الفقه، ولكن الفقه جزء مركزي من الأخلاق. فمجال الأخلاقيات يشتمل على أمور عدة توضح هذه السعة التي يتحدث عنها، فهو يبحث في الفاعل والفعل، ويبحث في العاجل والأجل، ويبحث في الظاهر والباطن، ويبحث في النظري والعمل، ويبحث في الوجود والكمال، ويبحث في الكيف والكفاءة في أداء الفعل وليس فقط مجرد الأداء. أما الفقه فلا يتحرك إلا ضمن مساحة البحث عن حلال وحرام وما بينهما، ولكن في الأخلاق لا يبحث عن الحلال والحرام، إنما يُبحث عن الأكمل وعن الأفضل، إذاً فالأخلاق تسعى إلى تنظيم مساحات دنيوية لا ينظمها الفقه قد تدرج عنده في مساحة المباح.

وهذا يوضح كيف أن الفقيه اليوم لم يعد وحده قادراً على تقويم كل أفعال الإنسان، ولم يعد قادراً وحده بعلمه على إصدار أحكام أو إجابات على كل الأسئلة التي تفرضها الحضارة الحديثة وتعقيدها وخاصة التي تفرضها التقنية في مجال الطب، الإعلام والسياسة وغيرها.

وفي سياق حديثه عن العلاقة بين الفقه والأخلاق أشار المحاضر إلى مداخل القراءة الأخلاقية للفقه فميز بين خمسة مقاربات لقراءة الفقه أخلاقياً، المقاربة الأولى: هي البحث في آيات الأخلاق التي ستوازي آيات الأحكام، المقاربة الثانية هي التي تبحث في إعادة تأويل النصوص الأخلاقية التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية من منظور التمييز بين ثبات القيمة وتغير الصيغة أو شكل الحكم، بمعنى أن الحكم المعين قد يأتي لتحقيق قيمة سوية وراءه وبالتالي يمكن أن يغير شكل الحكم بحثاً عن نفس القيمة، المقاربة الثالثة هي الوصل بين

الظاهر والباطن من خلال المنظور الصوفي كما يفعل طه عبد الرحمن مثلاً، المقارنة الرابعة هي دراسة حقل الفقه بنفسه بوصفه يعبر عن العلم الأخلاقي الإسلامي، والمقارنة الخامسة هي تحليل الأحكام الفقهية نفسها بناءً على الوحدة الموضوعية؛ أي أنه عند البحث في موضوع معين يتم البحث في كل الفروع الفقهية المرتبطة بهذا الموضوع ويتم دراستها بوصفها نسقاً متكاملًا يعبر عن منظومة قيمية و أخلاقية.

أمّا في الشقّ الأخير من المحاضرة، فأشار الباحث إلى أنّ النقطة الرئيسية التي يساعدنا علم أصول الفقه فيها في الجانب الأخلاقي هي البحث في المصادر، كما أشار سابقاً إلى ما بعد الأخلاق، وما بعد الأخلاق مرتبط بالإجابة على الأسئلة الكبرى في حقل الأخلاق، وأحد هذه الأسئلة الكبرى هو عن المصادر التي من خلالها نستطيع أن تستمد أحكامك الأخلاقية أو المعيارية. وأصول الفقه يبحث في نوعين من المصادر: المصادر النصية والمصادر غير النصية، ففي المصادر النصية المسائل واضحة النقاش، إلا أن النقاش كله ينصرف إلى مسائل تأويل هذه المصادر، ولكن في المصادر غير النصية هناك مساحة واسعة اليوم، إذ لدينا إرث كبير يمكن أن يستفاد منه ويعاد صياغة فلسفة أخلاقية إسلامية، وهذا لا يعني أن نجعل من الفقه والأصول علم أخلاق. فبرأي الباحث هنالك مباحث عديدة في علم الكلام وفي التصوف وفي الأداب وفي الأصول وفي الفقه هي مباحث أخلاقية بالمنظور الحديث نحتاج إلى إعادة صياغة هذا المجال - وهو ما يقوم به - بأن يُؤسس لعلم أخلاق، مبني على الإرث الغني والثري في تراثنا على اختلاف مذاهبه، و يشترك مع النقاشات الحديثة الغربية في الفلسفة الأخلاقية لبناء هذا العلم الأخلاقي الإسلامي.

وفي الختام أجاب المحاضر عن الأسئلة التي طرحها الطلاب، حيث لقيت المحاضرة تفاعلاً واسعاً وأسئلةً متنوعة ومداخلات ثرية.